

موضوعات المديح النبوي في الغرب الجزائري، و دلالاتها من خلال

مولديات الأمير أبي حمو الثاني الزياني

The themes of the prophetic praise in the Algerian west, and their connotations through the births of Prince Abu Hammu II El Zayani

خميس رضا

مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية - وهران (الجزائر). r.khemis@crasc.dz

تاريخ النشر : 2024 / 04 / 30

تاريخ القبول : 2024 / 04 / 12

تاريخ الاستلام : 2024 / 02 / 02

ملخص:

تمثل مولديات الأمير أبي حمو الثاني الزياني نموذجا لقصائد المديح النبوي الذي ساد في الغرب الجزائري خلال القرن الثامن الهجري، وقد ارتبطت هذه القصائد بالاحتفاليات السنوية بذكرى المولد النبوي الشريف في البلاط الملكي التلمساني الزياني خلال السنوات الممتدة ما بين 760هـ و771هـ، وقد كان هذا البلاط يقيم بهذه المناسبة حفلة كبرى يستدعي إليها الكثير من الناس من علماء ووجهاء وشعراء ونقباء الحرف المختلفة، حيث يلقون قصائدهم، وينالون جوائزهم تحفيزا وتشجيعا، بل إن الأمير نفسه ينظم في كل احتفالية قصيدة في المديح النبوي تسمى المولدية احتفاء بمولده -صلعم-، وقد بلغت عبر السنوات اثنتي عشرة قصيدة هي محل دراسة وورقتنا البحثية، التي سنحاول من خلالها دراسة الموضوعات المهمة فيها، ودلالاتها التي تجد تأويلها في المعتقد الصوفي والأبعاد الوظيفية للرموز التي تتضمنها.

الكلمات المفتاحية: توسل؛ دعاء؛ رحلة؛ محبة؛ مديح؛ مولديات.

Abstract:

The birthdays of Prince Abi Hamo II Al Zayani represent a model of the poems of prophetic praise that prevailed in western Algeria in the 8th century of the Hegira. In Tlemcen, he organizes a big party on this occasion, to which he summons many people, including scholars, notables, poets and captains of various trades, where they recite their poems and receive their prizes as motivation and encouragement. -Peace be upon you-, and over the years I have reached twelve poems which are the subject of our research dissertation. Through which we will try to study the dominant themes in it, and its connotations that find their interpretation in Sufi belief and the functional dimensions of the symbols they contain.

Keywords: birthdays; love; prayer; praise; supplication; travel.

لكي ننفذ إلى البواعث الحقيقية لتجارب المديح النبوي لأبد من الإمام بخفايا العواطف الدينية، من معرفة التيارات التي تنازعت نفسية الشاعر من خلال سيرته. فهذا الشعر الديني العاطفي غرضه التوسل بالرسول -صلى الله عليه وسلم- ومدح صفاته الجمالية والجلالية، والدعوة إلى التقشف، والعزوف عن الدنيا ومتاعها، والبعد عن الملذات والتحكم في الشهوات، والتمسك بقيم الدين السامية، والتوبة والاستقامة بعد الضلال، والاستعداد للأخرة، وهو بذلك يغلب عليه طابع الوعظ وإظهار الندم، والتذكير بالأخرة وما عند الله من ثواب وعقاب.

وقد مثلت المولديات صنفا من أصناف المديح النبوي إلا أنها ارتبطت بعامل زمني هو الاحتفالية بذكرى مولده عليه الصلاة والسلام. وقد دفعنا ذلك إلى التساؤل عن مدى مساهمتها في التعبير والإشادة بجمال و جلال خير الخلق -ص- من خلال الموضوعات التي تناولها الشاعر وبالتالي: كيف يمكننا تحديد الموضوعات المهيمنة، والمتشابكة بالاستناد إلى المنهج الموضوعاتي الذي هو منهج حدائي، وبالتالي رصد دلالاتها العميقة وفق الرؤى المتعددة، معتمدين في ذلك المنهج الموضوعاتي متزاوجا بالوصف والتحليل، والتأويل المنبثق من المعتقد الصوفي وملامحه الوجدانية بعيدة الغور. بهدف رصد الدلالات التي تحملها والأفكار التي بلورت السياق الموضوعاتي.

أولا: نشأة المديح النبوي و جذوره التناسية

يعتبر المديح النبوي غرضا عاطفيا دينيا ارتبط بذكر الرسول - صلى الله عليه وسلم-، والإشادة بصفاته ومكانته العظيمة، كما أنه فن من فنون الشعر التي أذاعها التصوف، وباب من الأدب الرفيع الذي يصدر عن قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص (مبارك، 1985، صفحة 17).

ويختلف الباحثون حول تاريخ نشأة المديح النبوي، فمنهم من يرده إلى عهد الدعوة النبوية، وما رافقها من جهاد وتضحيات مع حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن زهير.

وهناك من يذهب إلى أن هذا المديح فن مستحدث لم يظهر إلا في القرن السابع الهجري مع البوصيري وابن دقيق العيد. (الجراري، 1982، صفحة 141)

ومن منا لم يعرف أو يسمع عن قصيدة البردة للبوصيري التي طبقت شهرتها الأفاق، وكم كان لها من أثر في تعليم الأدب والتاريخ والأخلاق، فعن البردة تلقى الناس طوائف من الألفاظ والتعابير غنيت بها لغة التخاطب، وعن البردة عرفوا أبوابا من السيرة النبوية، وترجع الجذور التناسية لشعر المديح النبوي عبر تعاقبه التاريخي والفني إلى القرآن الكريم أولا فالسنة النبوية الشريفة ثانيا. كما أن هناك مصدرا مهما في نسج هذا الشعر يتمثل في كتب التفسير التي فصلت حياة الرسول -صلى الله عليه وسلم- تفصيلا كبيرا كما يظهر ذلك جليا في تفسير ابن كثير على سبيل التمثيل، بله عن كتب السيرة التي تتمثل في مجموعة من الوثائق والمصنفات التي كتبت حول سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) سواء أكانت قديمة أم حديثة وأذكر على سبيل المثال: "السيرة النبوية" لابن هشام، وسيرة ابن اسحق و"الرحيق المختوم" لصفي الرحمن، و"السيرة النبوية" لأبي الحسن الندوي، و"السيرة النبوية" لابن حبان، و"الوفاء بأحوال المصطفى" لأبي الفرج عبد الرحمن الجوزي، و"الشفا بتعريف حقوق المصطفى" للقاظمي عياض.

ثانيا: الموضوعات في شعر المولديات

يمثل النص الشعري فضاء موضوعاتيا متكاملًا ذا أبعاد تعبيرية ومضمونية في شتى تمفصلاتها ولذلك تقوم دراستنا لموضوعات المديح النبوي في الغرب الجزائري من خلال مولديات الأمير أبي حمو الثاني الزباني على رصد الموضوعات المهيمنة والبانة لخطاب المديح النبوي، وقد تبين لنا أن هذه الموضوعات تتداخل في القصيدة الواحدة غير أن بعضها اختص بالذات الناقصة: (الذات الإنسانية) كما هو الحال في موضوعات:

الحب المحمدي، الرحلة، الشيب والشباب، والدعاء. وبعضها الآخر اختص بالذات النبوية الكاملة كما هو الحال في موضوعة المديح النبوي. كما أتت الموضوعات معبرة أحيانا أخرى عن التقاء الذاتين: الذات الناقصة والذات الكاملة، وهو ما أصطلح عليه بموضوعة التوسل والإستغاثة.

1. موضوعة الحب المحمدي

تعتبر هذه الموضوعة أساس الخطاب الشعري المولدي وبؤرته الدالة فيه حيث العواطف الجياشة والمكابدات الوجدانية المعبرة عن استجابة نفسية وتجربة حقيقية في الحب أشبه بتجربة الحب العذري (حبار، شعر أبي مدين التلمساني (الرؤيا والتشكيل)، 2002، الصفحات 66-67). يقول أبو حمو الثاني الزياني (حاجيات و موسى الزياني، 1982، صفحة 352):

مشوق تزييا بالغرام وشاحا متى ما جرى ذكر الأعبة باحا
تعذبه أشجانه وهو صابر ويبدي اشتياقا زفرة ونواحا
محب مشوق قيدته يد الهوى أسير لديكم لا يريد سراحا

فهذه الأبيات نسيب كنسيب العذريين دلت على ديمومة الشوق والمحبة وعلى دوام الصبر ومعاونة الصدود والفصال، ولولا أنها مرتبطة باحتفالية المولد النبوي الشريف لحسبتها غزلا عذريا تشتد فيه ضغوط المتناقضات وإيلاام المتفارقات على إحساس الشاعر وكيانه الوجودي، فتتفجر نفسه في الحب تفجرا متأزما ينتهج بها منحنى المأساة القائمة على تمزق يغذيه الشعور بالغربة والحرمان. والعلاقة بين المحبوب والمحب علاقة انفصال وغياب، وهي علاقة يرفضها المحب، لأن المحبة جزء من إيمانه فما كان لهذا الحب أن يوجد لو لم يفرز قلبا مؤمنا بالحساب والعقاب، وينتظر ثواب الحب مكافأة (مكي العاني، 1983، صفحة 122)، يقول الشاعر (حاجيات و موسى الزياني، 1982، صفحة 354):

وما لي سوى حيي إليك وسيلة أمد بها نحو الشفاعة راحا
عبيدك موسى منك يرجو شفاعة ينال بها يوم الحساب نجاحا

فالحب هنا متصل بالبحث عن الخلاص المرتبط بالمفاهيم الدينية الصوفية التي لها علاقة بالحنذر والخوف من المصير الأخروي المنتظر، كما دلت على ذلك البنى التالية: (حيي إليك وسيلة، نحو الشفاعة، يرجو شفاعة، يوم الحساب نجاحا). وقد جاء في الحديث: «ألا لا إيمان لمن لا محبة له» (بن سليمان الجزولي، 1342 هـ، صفحة 20). لذا لا غرابة أن نجد شاعرنا يؤثر زيارة قبره - صلى الله عليه وسلم - لما وقر في القلب من إيمان بجدوى هذه المحبة، يقول (حاجيات و موسى الزياني، 1982، صفحة 368):

فقبر الرسول مناي و سؤلي عسى بالوصول سأحظى نصيبا

وقد جاء في الحديث: «من زارني في مماتي كمن زارني في حياتي ومن زارني حتى ينتهي إلى قبري كنت له يوم القيامة شهيدا أو قال شفيعا» (يوسف إسماعيل، 1996، صفحة 131). والمحبة أيضا هي محبة موطنه - صلى الله عليه وسلم - لما له من فضل وحرمة، ففي الحديث: «لكل نبي حرم و حرمي المدينة» (يوسف إسماعيل، المرجع السابق، صفحة 84)، يقول الشاعر (حاجيات و موسى الزياني، 1982، صفحة 347):

و أصبو إلى أرض الحبيب و من بها متى ما سرى عرف النسيم الحجازي
وقوله (حاجيات و موسى الزياني، 1982، صفحة 132):

بنفسي وروحي أهل طيبة إنها شفاء من الآثام والزيغ والبغي

و"طيبة" هي المدينة المنورة التي جعلها ص - عاصمة أولى للمسلمين، كما يوجد بها قبره عليه السلام. و قد اتخذت موضوعة الحب المحمدي في المولديات عدة مظاهر تمثلت في:

❖ مظهر العذاب النفسي لذات تمزقت حتى تصدعت ثم انصهرت في بوتقة الألم وروضت عليه ، يقول أبو حمو الثاني الزباني (حاجيات و موسى الزباني، 1982، صفحة 133):

وقل ذلك المضي المعذب بالهوى يموت ويحيا فارث للميت الحي
يعذبني شوقي ويضعفني الهوى وقلبي على جمر من الشوق محي

❖ مظهر التجلد والصبر على المحبة الدال على صدق التجربة الغرامية الإنسانية الممزقة بين مقتضيات الوصال والفصال. وبين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون، يقول (حاجيات و موسى الزباني، 1982، صفحة 353):

أهيم بمغناكم وأندب ربعكم ويشتاكم قلبي مساء صباحا
أكافح دهري بالتجلد فيكم وأفني زمني بالغرام كفاحا

❖ مظهر التضحية في حب الحبيب كبرهان على صدق المحبة، يقول (حاجيات و موسى الزباني، 1982، صفحة 353):

أجود بنفسي في رضاكم صباة فهلا مننتم بالوصال سماحا

ويقول (حاجيات و موسى الزباني، 1982، الصفحات 371-372):

شهد وبعد وأشواق تلازني وكلها لعذابي قد غدا سببا
أكابد الليل بالتسهد مفتكرا ولا أبالي به إن طال أو قربا
ليلي نهار ويومي كله فكر والنوم عن مقلتي من بعدهم سلبا

❖ مظهر التذلل واستعطاف الحبيب استجداء لشفقته ورحمته: وفي ذلك اعتراف بمرارة الفصال ورد فعل على مقابلة الحب بالصد، يقول أبو حمو الثاني الزباني (حاجيات و موسى الزباني، 1982، صفحة 360):

وقل لهم يرحمون المحب فما اختار غيرهم مطلبا
فرقوا لقلب غدا مشرقا وحنوا لصب ثوى مغربا

ويقول أيضا (حاجيات و موسى الزباني، 1982، صفحة 360):

فإن يرحموني فمن فضلهم وإن يهجرني فيا مرحبا

2. موضوعة الرحلة

الرحلة أو الطعن تقليد في القصيدة العربية القديمة يعبر عن وصف مشاهد رحلة الطعنان وما تثيره من مشاعر اللوعة المرتبطة بالفراق (حبار، شعر أبي مدين التلمساني (الرؤيا والتشكيل)، صفحة 82)، حيث تتناسج لحظات الوداع بالإفضاء النفسي، ويتظافر الإفصاح عن الأحاسيس "بصور الضياع التي تجسدها صلة الناقص بالكامل وصلة الإنسان بالأرض" (حبار، شعر أبي مدين التلمساني (الرؤيا والتشكيل)، صفحة 82). ولقد ارتبطت موضوعة الرحلة في المولديات بـ:
أ- مساءلة الركب ومخاطبته (فيصل، صفحة 117 وما بعدها): وما فعل الشاعر ذلك إلا لمداواة ألمه والتخفيف من حدة صبابته وحزنه، أو لتوقع إجابة تبعث في نفسه الأمل، يقول (حاجيات و موسى الزباني، 1982، صفحة 373):

هذي الأحبة قد شدوا مطيهم وأسرعوا بقباب الحي نحو قبا
ولا رضيت لنفسي غيرهم بدلا ولا وجدت لقلبي دونهم طلبا
زموا إلى زمزم والقلب يتبعهم والصبر بعدهم عني قد عزبا
وخلفوني بغرب مغرما بهم أشكو لهم وبهم من عبرتي عجبا
فقلت يا حاديا والركب يسمعي رفقا على الصب يا حاديهم فأبى
يا حادي العيس قف بالله تخبرني بيني وبينهم عهدا ترى قريبا؟
في كل عام يسير الركب مرتحلا وقد قيدت عن فرضي الذي وجبا
فهو بعد أن يعبر عن مقصد الأحبة الذين شدوا مطيهم إلى محبوبهم، يخاطب الركب متسائلا عن عهد
الوصال، هل مازال بعيدا أم قريبا؟!، متأسفا عن تقيده عن الرحيل والسفر إلى المحبوب المنشود. فالتساؤل
يخفي ألما وحرنا ويصبو إلى سماع جواب تطمئن له النفس ويهدأ به القلب. ولكن هذا التساؤل يبقى بدون
جواب ولا أمل يرتجى لأن الشاعر يبقى مكبلا بحظوظه وعدم قدرته على مرافقة الراحلين السالكين درب
المحبة المحمدية.

ب- ذكر الظعن ومماشاة الركب والوقوف عند معالم الطريق ووصل ذلك بصورة درامية لحالة نفسية تعاني
الإغتراب، يقول (حاجيات و موسى الزياني، 1982، الصفحات 367-368):

فيا حادي العيس نحو الحمى إذا جئت ذاك الجنب الرحيا
وزاد الهوى حين زال النوى وجئت اللوى واعتمدت الكثيبا
لقبر التهامي لبدر التمام لخير الأنام شفيعا حبيبا
فبلغ إليه سلامي عليه فإن لديه لسقمي طيبا
وإن جئت نجدا وأعلامها فشق ثراها بدمعي سكبيا
فيا سعد قوم حدوا كل يوم وعن نوم تجافوا جنوبا
حدوا بالنياق فزاد اشتياقي وسالت سواقي دموعي صبيبا
فقلبي من الشوق في مشرق وجسمي في الغرب أمسى غريبا

ج- طرحت موضوعة الرحلة جملة من المواصفات، تجد جذورها في ربح ثنائي محورها عاطفي وجداني وتألمي
وجودي، حيث: تشكل رحلة في الزمان والمكان والوعي باتجاه أمل التكامل والتجدد والإنبعاث من واقع أليم
مليء بالإحباط والعجز والقهر إلى السفر إلى مثال زاه تتلأأ فيه الأمان، فهي بهذه النظرة تعويضها عن جراحات
الحاضر وآلامه وهروبا للعيش في كنف المثال المنشود، يقول الشاعر (حاجيات و موسى الزياني، 1982،
صفحة 346):

لقد أقعدتني عن حماكم قلائد وليس عناني عن هواكم بمثني
فيا أهل نجد أنجدوني على الهوى فإني في بحر من الشوق لجي
مقيم بأقصى الغرب أشكوبه الجوى وحالي على حكم النوى غير مخفي
ويا حاديا يحدو الركاب إليهم أنخ بربي نجد وسلم على طي
وأخبرهم أنني أراء ي ذمامهم فما لدمامي عندهم غير مرعي

فيا ليت شعري والديار قصبة متى تسمح الأيام لي بلقا الحي
عسى الدهر يدنيني ويسمح باللقاء فيشفي غليل القلب من ذلك الري
وتالله مالي غيركم أن هجرتم فهجر كم يردي ووصلكم يحيي

فهذا الذي هو أشبه بالنسيب يتصل بالشوق إلى المعالم الحجازية، حيث اختار الشاعر تلك المواطن لصلتها بمولد الرسول صلى الله عليه وسلم، وفي ذلك حرص من الشاعر على متابعة القدماء في مثل هذه التصورات.

د- إنها رحلة رمزية أدواتها الذاكرة في المكان والزمان، حيث: "مكنايا ارتحال المندس إلى المقدس، وزمانيا: ارتحال الراهن المؤلم إلى الغابر المبتسم" (شبيب، فن المديح النبوي في العصر المملوكي، صفحة 107)، يقول (حاجيات و موسى الزياتي، 1982، صفحة 343):

سرت الإبل لما ارتحلوا قلبي حملوا في ركبهم
زاروا الهادي بهوى بادي وحدا الحادي عزما بهم
شدوا عزموا فازوا غنموا لما قدموا لحي الحرم
جسمي بتلمسان دنف والقلب رهين بالحرم

هـ- تتميز موضوعة الرحلة في تركيبها اللغوية بتوظيف أداة النداء "يا"، وهذه الأداة تقوم عادة بوظيفة الإستجارة والإستغاثة والصياح طلبا للحي والإنقاذ" (حبار، سيميائية الخطاب الشعري عند الصوفية، 1993، صفحة 50)، فنواة الموضوعة إذا هو الهاجس النفسي والفكري المعبر عن الحاجة، حاجة الناقص إلى الكامل، والبعيد إلى القريب، والحاضر إلى الماضي، والشقي إلى السعيد والمرتحل ذاته ومنه إلى المرتحل إليه ذاتا ومكانا، يقول أبو حمو الثاني الزياتي (حاجيات و موسى الزياتي، 1982، صفحة 346):

يا حاديا يحدو الركاب إليهم أنخ بربي نجد وسلم على طي
ويقول (حاجيات و موسى الزياتي، 1982، صفحة 353):

فيا حاديا يحدو الركاب لطيبة يجوب بها بحر الفلاة طلاحا
ويقول أيضا (حاجيات و موسى الزياتي، 1982، صفحة 357):

يا حاديا يطوي الفلا بيد السرى رفقا علي فما أطيق تصبرا

فالنداء يعبر عن عاطفة مشبوبة يتفاعل من خلالها الصوت مع الحس والشعور واللسان والقلب فإذا هو -أي النداء- بلاغ: (سلم) ووجهة: (لطيبة) ووجدان: (رفقا).

و- لعبت موضوعة الرحلة دورا في إخراج المعاني الذوقية الصوفية من المجرد إلى المحسوس الملموس، حيث يدل مشهدها على صلة بالواقع المحسوس في حين أنها تمثل في حقيقة الأمر "معادلا موضوعيا لمعراج الصوفية نحو القدس الأعلى، وإن المحطات التي يمر بها الركب مثل: (بحر الفلاة ، الفلا و بيد السرى...) وصولا إلى (نجد وطيبة...) لا تعدو أن تكون معادلا موضوعيا للمقامات الصوفية التي يقطعها المريدون السالكون بعد تعب ومجاهدات نفسية للوصول إلى المقصد الأسنى" (شبيب، فن المديح النبوي في العصر المملوكي، صفحة 108) حيث الأمل والمثال المنشود.

3. موضوعة الشيب والشباب

تشكل هذه الموضوعة جانبا هاما في القصيدة العربية المركبة، وقد ذهب بعضهم إلى أن أول من ابتكرها هو الشاعر الجاهلي عمرو بن قميئة ثم تداولها الشعراء من بعده (عطوان، 1974، صفحة ج1)،

وذهب آخرون إلى القول بأن هذه الظاهرة ولدت ونشأت في العصر العباسي الأول على يد أبي تمام (حاجي، صفحة 26). وتصور هذه الموضوعة صراع الإنسان مع الزمن والطبيعة، وما يحمله هذا الصراع من دلالات ومواقف، حيث يرمز الشباب غالبا إلى الحيوية والمغامرة واللامبالاة في حين يرمز الشيب إلى الشيخوخة وما يتصل بها من الحكمة والتجربة، والضعف والذبول الذي يوجي بحتمية النهاية التي هي مصير كل حي. يقول أبو حمو الثاني الزياني (حاجيات و موسى الزياني، 1982، صفحة 353):

لعمرى لقد قضيت عمري في الصبي وأجريت خيل اللهوف فيه مراحا
وولى شبابي في التصابي ولاح لي مشيب به عاد المساء صباحا
وفعل التغيير الفيزيولوجي لأثر الشيب أيضا له مواصفاته ، يقول الشاعر (حاجيات و موسى الزياني، 1982، صفحة 381):

قد اصفرلوني بعد حسن شببيتي كما أبيض رأسي بعدما كان مسودا
وقد مر عمري في عسى ولعل تواصلني لبني وتهجرني سعدى
وتزري بي الدنيا بزور غرورها فكم نقضت عهدا وكم نثرت عقدا
هويت من الدنيا زخارفها التي بفرط هواها لا أطيق لها ردا
شغلت بها دهرها ولم أر ما مضى وقد بذلت من بعد قربي لها بعدا
والشاعر إذ يبكي شبابه فإنما يبكي تضییع العمر فيما لا ينفع من تسويف وضلال، يقول (حاجيات و موسى الزياني، 1982، صفحة 350):

ضيعت عمري في التسويف وا أسفا فها أنا بعد شمل كان مؤتلفا

أبكي الربوع وطورا أندب المنا

ويقول أيضا (حاجيات و موسى الزياني، 1982، صفحة 366):

مضى العمر يا حسرتي في الضلال واشتعل الرأس منه مشيبا

و الشاعر يصور نفسا يحاصرهما ماضي الشباب بذنوبه وأخطائه، وترى في حاضر شيبها ما يحملها على الندم والتوبة والعتاب عزاء وأملا في الخلاص باعتبار الشيب جسرا إلى مرحلة الموت التي تعد لحظة انتقالية إلى عالم الخلود، فإما عذاب خالد أو نعيم مقيم. يقول (حاجيات و موسى الزياني، 1982، صفحة 359):

فأيقظني الشيب من غفلتي ففي لمي من حديثي نبا

وقد عاد غض شبابي به محيلا ولوني غدا مذهبا

فوا أسفي من ذنوب مضت تقضيها في زمان الصبا

4. موضوعة الدعاء

ترتبط في مضمونها بالذات الإلهية، لقوله تعالى: "وقال ربكم ادعوني أستجب لكم" (سورة غافر، الآية 60)، لأن الدعاء أساسا هو: "رفع الحاجات إلى رافع الدرجات (مخير، 1986، صفحة 134)، وقد اتسمت موضوعة الدعاء في المولديات بنغمة حزينة غالبا ما تستدعي الإستعطاف حيث تتوحد هموم الشاعر وحاجاته الذاتية مع ما يعانيه من شعور بالذنب ووظأته، يقول (حاجيات و موسى الزياني، 1982، صفحة 359):

فوا أسفي من ذنوب مضت تقضيها في زمان الصبا

وكم لمت نفسي فما أقلعت وعاتبت قلبي فما أعتبا

وكم قد بكيت لذنوب جنيت وقلبي نهيت ولكن أبى

فالذات المذنبية قد تابت وعادت إلى رشدتها لتجد نفسها مفرطة في حق الله تعالى الذي وهبها نعمه وإحسانه وأفضاله، يقول (حاجيات و موسى الزياتي، 1982، صفحة 364):

مني الإساءة والإحسان منك بدا مني الذنوب وكل الفضل منك رجي
كم جدت بالفضل والإحسان منك وكم سترت بالفضل من أفعالي السمح
كما اشتملت هذه الموضوعة على أوصاف العبودية من إظهار الإفتقار والإضطرار على وجه التضرع والخضوع لله تعالى باستشعار عظمة الربوبية من خلال التوجه بالسؤال طلباً للعفو والرضى والمغفرة، يقول (حاجيات و موسى الزياتي، 1982، صفحة 342):

يا رب ذنوبي قد عظمت فامنن بالعفو لمجترم
فالعفو إلي منك وإن الذنب وحقك من شيمي
شأن المملوك الذنب وشأ ن المولى العفو عن الخدم

5. موضوعة المديح النبوي

المديح لغة "مصدر مشتق من مادة: "مدح" بفتح الحروف الثلاثة، فيقال مدحه مدحا ومدحة بمعنى أحسن الثناء عليه والجمع مدائح " (إبن منظور، 1965، صفحة 590). أما اصطلاحاً فيعد المديح فن أدبي ظهر منذ العصر الجاهلي، وهو "ثناء حسن يرفعه الشاعر إلى إنسان حي أو جماعة أحياء عرفانا بالجميل أو طلباً للنوال، أو رغبة في الصفح والمغفرة" (وهب، 1981، صفحة 20). وتعتبر موضوعة المديح النبوي أهم ما يميز القصيدة المولدية عند أبي حمو الثاني الزياتي، مؤسسة في ذلك على عاطفة الحب والإيمان الصادق (بدوي، صفحة 471) بأن محمد صلى الله عليه وسلم - أفضل وأكمل إنسان عرفه الوجود، حيث نميز: التركيز على أوصاف الرسول - صلى الله عليه وسلم - المعنوية لأن الناس يتفاضلون بها ويتميزون، ولأنه بها يستوفي الخصال الإنسانية النبيلة، يقول الشاعر (حاجيات و موسى الزياتي، 1982، صفحة 367):

إلى خير هاد هدى للرشاد جميع العباد وجلي الخطوب
أجل شفيع مكين رفيع أتى في ربيع فأحيا القلوب
كريم السجايا عظيم المزاي جزيل العطايا جميلا مهيبا
ب- إرتباط مديح الكمال المحمدي بالتأييد الإلهي له دنيويا وأخرويا. أما التأييد الدنيوي بالإصطفاء والإختيار والإجتباء لهذه الذات من قبل رب العزة، يقول الشاعر (حاجيات و موسى الزياتي، 1982، صفحة 383):

هو الرحمة الهادي الشفيع لنا غدا هو المصطفى المختار يلهمنا الرشدا
ويقول أيضا (حاجيات و موسى الزياتي، المرجع السابق، صفحة 361):
فربي حسبي لوجدي وكربي ومالي لذني سوى المجتبى
وأيضا التأييد بالمعجزات إثباتا لصدق رسالته صلى الله عليه وسلم - ودعوة إلى الإيمان بها وتصديقها، كما في قوله (حاجيات و موسى الزياتي، 1982، صفحة 376):

رسول أتى بالمعجزات فلم تدع براهينها من حجة للمحاجج
أما التأييد الأخروي فيتمثل في الشفاعة التي جعلها الله له - صلى الله عليه وسلم - دلالة على جنبه الرفيع ووجاهته وجاهه. يقول أبو حمو الثاني الزياتي (حاجيات و موسى الزياتي، 1982، صفحة 383):
وأعظم عند الله جاها وحرمة وأندى الورى كفا إذا سئل الرفدا
كما أن الشفاعة تزيد من فضله - صلى الله عليه وسلم - على الخلق أجمعين، يقول (حاجيات و موسى الزياتي، 1982، صفحة 363):

عمت شفاعته للخلق كلهم وبالسيلة يرقى أرفع الدرج

6. موضوعة التوسل

هناك من يرى أن إطلاق تسمية المديح على الشعر الذي يركز على شخصية الرسول -ص- بعد الوفاة هو من الأخطاء الشائعة التي وقع فيها الكثير من الباحثين لأنه نظم لغرض جديد هو الإستغاثة بالرسول والتوسل إليه لرفع المعاناة (عبد قاسم، 1990، صفحة 226) وتحقيق الخلاص. فالتوسل يقوم على اعتبار الرسول صلى الله عليه وسلم- صلة الوصل بين الله والناس، والباب الذي ينفذ منه الخلق إلى بارئهم لتحقيق خلاصهم وسعادتهم، أي أن تحقيق الأمل المنشود لا يكون إلا من خلال هذا الباب، يقول أبو حمو الثاني الزياني (حاجيات و موسى الزياني، 1982، صفحة 382):

وعبدك موسى لم يزل فيك راجيا ومن شيم المولى أن يرحم العبد
توسلت بالمختار من آل هاشم أجرتني من النار التي أضمرت وقدا

وقد جاءت موضوعة التوسل في المولديات مؤسسة على خصائص وميزات، هي:

أ- اعتبار الرسول صلى الله عليه وسلم - موصول الحياة نظرا لخلود رسالته واستمرارية شريعته السمحاء وحتمية بقائها، فالشاعر يخاطبه كما يخاطب الأحياء، (رجب النجار، 1986، صفحة 77) ويسأله ما يأمل ويرجو من خير وفضل وشفاعة، يقول (حاجيات و موسى الزياني، 1982، صفحة 377):

ألا يا رسول الله دعوة شيق يؤمل آمالا لديك فساحا
مقيم بغرب كاد من فرط حبه يطير اشتياقا لو أغير جناحا
ومالي سوى حبي إليك وسيلة أمد بها نحو الشفاعة راحا

وما يأمله الشاعر من الرسول - صلى الله عليه وسلم - ينبنى على اعتقاد راسخ بعظمة جاهه وحرمة عليه السلام عند الله تعالى، يقول (حاجيات و موسى الزياني، 1982، صفحة 354):

وأعظم عند الله جاهها وحرمة وأندى الورى كفا إذا سئل الرفدا

ب- قيام التوسل على تناقض انبنائي يرفعه إلى أجواء صوفية تتقابل فيها صفات المتوسل وصفات المتوسل به وتتخالف، فالذات المتوسلة مشوبة بميزات النقص، مغلولة بالذنوب والخطايا ومكبلة بالعوائق، تتوق إلى الخلاص من نقصها والتطهر من شرورها ومعاصيها والتحرر من عوائقها التي تربطها بعالم الظلمات والفساد، في حين يبدو المتوسل به على النقيض من ذلك مثوب بصفات الكمال ومتصف بمزايا القدرة على تقديم الخلاص، يقول الشاعر (حاجيات و موسى الزياني، 1982، صفحة 356):

أدعوك دعوة مستهام واله أوليتني الإحسان منك فواله
واسمح لعبدك عن قبيح فعالة فوسيلتي حب النبي وآله
خير البرية وخير شفيع

وقد ظهرت نفحات التصوف ظهورا جليا في هذه الموضوعة، حيث ارتبطت بالصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم- وتبليغه السلام ورجاء الشفاعة منه، وهي التي هي عز الطلب وغاية أمل الذات الناقصة في الذات الكاملة لتحقيق خلاصها، كما في قول الشاعر (حاجيات و موسى الزياني، 1982، صفحة 374):

صلي عليه إله العرش خالقنا ما غنت الطير في أفنانها طلبا

ثم السلام عليه دائما أبدا ما أطلع الأفق من أنواره شهباً

فالذات الناقصة تبحث عن الخلاص متوسلة مستغيثة، وفي الحديث: "كل دعاء محجوب حتى يصلي على محمد وآل محمد" و: "أن الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتى تصلي على نبيك محمد - صلى الله عليه وسلم -" (الشرقي، صفحة 131)، وقد جاء في حاشية دلائل الخيرات ما نصه: "الحكمة في أن الله تعالى أمرنا أن نصلي عليه، والتعليم وقع بطلب صلاة الله، أنه عليه الصلاة والسلام طاهر لا عيب فيه ولا نقص، وفينا العيب والنقص، فكيف يثني ذو العيب على من لا عيب فيه، فسالنا الله أن يصلي عليه لتكون الصلاة من طاهر إلى طاهر وعليه "فإن الذوات الناقصة من الخلق عاجزة عن الوفاء بما تستحقه هذه الذات الكاملة من الخير والثناء لعدم قدرتهم وقصور علمهم عن الإحاطة بما هو عليه من الكمالات لذلك ردوا سؤال ذلك من القادر على ما يشاء من الخيرات (حاجيات و موسى الزباني، 1982، صفحة 97)، وقد جاء في دلائل الخيرات: من أراد أن يسأل حاجته فليبدأ بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ثم يسأل حاجته، وليختم بالصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - فإن الله يقبل ما بين الصلاتين،" ولقوله - صلى الله عليه وسلم -: "من عسرت عليه حاجة فليكثر من الصلاة فإنها تكشف الهموم والغموم وتكثر الأرزاق وتقضي الحوائج"، وشاعرنا إذ يصبو إلى طلب الشفاعة، وحتى يقبل رجاؤه وتستجاب مسألته لا يفوته هذا الأمر، يقول (حاجيات و موسى الزباني، 1982، صفحة 351):

أرجو شفاعته يوم الحساب غدا يا رب صل عليه دائما أبدا

وبذلك يتضح لنا أن موضوع التوسل تركز على اعتقاد ديني و يقين إيماني راسخ بجدوى التعلق بالذات النبوية الكاملة تعلق استغاثة ورجاء وصلاة وتسليم.

ثالثاً: الدلالات الموضوعاتية

إن الدراسة الدلالية للنص هي دراسة كل ما يعين علماً للوصول إلى حقيقة مضمونه، حيث إن اللفظ دالوالمقصود باللفظ مدلول، والنطق وسيلة للوصول إلى المقصود، بحيث لا يمكن الوصول إليه دون الوسيلة، ولا فائدة للوسيلة إن لم توصل إليه، ومن هنا ندرك تداخل الشكل مع المضمون والدال مع المدلول، واللفظ مظهر الدلالة، حيث يظهر الدلالة الواحدة بأكثر من مظهر، وهذا المظهر يكون سبباً في تقبل الدلالة أو رفضها، ولذلك يجب على من يريد أن يحلل النص ألا ينظر إلى سطحه المتموج بل عليه أن يغوص إلى أعماق النص ليصل إلى الكنوز الدلالية التي يمتلكها، ولا يمكن إدراك الجمال اللغوي للنص إذا لم يصل الناقد إلى الدلالة التي وضع النص من أجلها، والنص الذي يحتمل أكثر من دلالة يمتلك أكثر من سر، والوصول إلى الدلالات المقصودة، أو إلى الاحتمالات الدلالية، أو إلى الدلالة غير المتوقعة للنص لا يستطيعه إلا من ينعم نظره في النص، ويعمل فكره في عباراته (حسن حجازي، 2012، صفحة 7).

وقد تبين لنا من خلال الدلالات اللفظية المفردة والتركيبية أن القصائد المولدية قد هيمنت عليها موضوعات عميقة، منها: ما اختص بنقائص الناقص، ومنها: ما اختص بكمالات الكامل، ومنها: ما تعلق بالتقاء الناقص بالكامل، بحيث تتكامل في النهاية مكونات البناء الموضوعاتي بمكونات البناء المعماري وتتأزر في إنتاج دلالة عميقة واحدة هي رفض ما هو كائن من نقص وتطلع إلى ما ينبغي أن يكون من كمال ممثلاً في أكمل خلق الله محمد صلى الله عليه وسلم.

أما الموضوعات التي اختصت بنقائص الناقص فقد رصدنا منها على الترتيب: موضوعات الحب

المحمدي، الرحلة، الشيب والشباب والدعاء.

أما الحب المحمدي فيمثل العاطفة المشبوبة بمعاني الشوق واللوعة والغرام، المطعمة بعذابات النفس

الناقصة الممزقة بأحوال الهجر والبعد عن الحبيب.

وأما الرحلة فتمثل سفرا وعودة إلى المنبع المقدس، فهي رحلة رمزية أدواتها الذاكرة في المكان والزمان. مكانيا: ارتحال المندس إلى المقدس وزمنيا: ارتحال من الراهن المؤلم إلى الغابر المبتسم حيث الأمن والطمأنينة و النجاة.

والشيب والشباب ليس إلا حكم الزمن المغير من حال إلى حال ومن فعل إلى رد فعل. فإذا الفعل أخطاء ارتبطت بالشباب فأوجبت الانفصال، وإذا رد الفعل ندم وتوبة اتصلت بالمشيب محركا نوازع الإتصال في البحث عن الخلاص.

والدعاء كان رفع حاجة الذات الناقصة إلى القادر على تحقيقها، رهبة من عذابه تعالى ورغبة في عفوه ومغفرته.

وأما ما اختص بكلمات الكامل فتمثلها موضوعة المديح النبوي حيث تستحضر صورة الرسول صلى الله عليه وسلم. في احتفالية بالغة الجلال والمثالية تجعل منه أي الرسول صلى الله عليه وسلم - مستودعا للمفاخر ومنبعا للخيرات. كما أن توظيف المعجزات المنسوبة إليه يكرس المثال الأكمل لبطولاته المتظافرة مع فضائله العديدة.

أما موضوعة التوسل حيث يلتقي الناقص بالكامل فقد شكلت رسالة تبشير بالمستقبل الأخروي الغائب، إذ يعد التوسل بالذات النبوية أملا أخيرا ورجاء باقيا وحيدا في رحلة البحث عن الخلاص المنشود وتغيير ما هو كائن بما ينبغي أن يكون.

ويرى (بريال) الذي يعد واضع علم الدلالة الحديث أن معظم اللسانيين اهتموا بجسم وشكل الكلمات، وما انتهوا قط إلى القوانين التي تنظم تغير المعاني وانتقاء العبارات الجديدة لاستنباط الدلالة، وأطلق على هذه الدراسة اسم (semantique)، للدلالة على علم المعاني (حاجيات و موسى الزياني، 1982، صفحة 8). وهو ما دفعنا إلى الكشف على أن الشاعر كان يتنقل تداوليا في شبكة موضوعات قصائده المديحية-المولدية من ضمير المتكلم الدال على انفعالية الذات، والانسياق وراء المناجاة الربانية، والاستعطف الذاتي إلى ضمير المخاطب أو الغياب للتركيز على الممدوح وصفا وإشادة وتعظيما، لكن أيضا بعيدا عن التزلف والتكسب، وجامعا بين الدلالة الحسية والدلالة الصوفية الروحانية. كما أنه متأثر من حيث لغته وبيانه وإيقاعه وصوره وأساليبه بالتراث الشعري القديم صياغة ودلالة ومقصدية. خاتمة:

يتضح لنا من خلال هذه الورقة البحثية أن المولديات بعمق دلالاتها الموضوعاتية :
- مثلت شعرا دينيا ينطلق من رؤية إسلامية، ويهدف إلى تغيير العالم المعيش وتجاوز الوعي السائد نحو وعي ممكن يقوم على مرجعية عقائدية-روحانية بالمفهوم الإيجابي.
- من خلال التركيز على الحقيقة المحمدية الكاملة تتجلى السيادة والأفضلية والنورانية التي يشيد فيها الشاعر بالرسول صلى الله عليه وسلم باعتباره سيد الكون والمخلوقات، وأنه أفضل البشر خلقا، وهو كذلك كائن نوراني في عصمته ودمائه أخلاقه وذلك من خلال أبعاد وجدانية وصوفية تفرض على الذات الناقصة البحث عن نوازع الوصال، والتخلص من واقعية الفصال. وما الحب المحمدي إلا مسلكا لرحلة التعبير عن حب الأماكن المقدسة والشوق العارم إلى زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم والوقوف على جبل عرفات والانتشاء بكل الفضائل التي عاش فيها الحبيب.

- تميزت بتعدد الأغراض والمواضيع على غرار الشعر العربي القديم، والسبب في هذا التعدد يرجعه الباحثون إلى معارضة القصائد الأصلية كقصائد البوصيري وقصائد ابن الفارض وقصيدة كعب بن زهير وغيرها. وهذه المعارضة تدفع الشاعر إلى انتهاج نفس البناء والسير على نفس الإيقاع والروي والقافية واستخدام نفس الألفاظ والأغراض الشعرية.

❖ ابن منظور ابن منظور. (1965). لسان العرب (المجلد 2). (جمال الدين محمد بن مكرم، المحرر) دار بيروت وصادر.

❖ أحمد بدوي. الحياة الأدبية في العصور الصليبية بمصر والشام، مكتبة النهضة. مصر.

❖ السائح الشرقي. سيدي محمد العربي بغية المستفيد لشرح منية المريد. بيروت: دار الجيل.

❖ الزنهاني يوسف إسماعيل. (1996). شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق (ص) (المجلد ط 1). (الشيخ عبد الوارث محمد علي، المحرر) بيروت: دار الكتب العلمية.

❖ حسين عطوان. (1974). مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي (المجلد ج 1). دار المعارف القاهرة.

❖ رومية وهب. (1981). قصيدة المدح حتى نهاية العصر الأموي. دمشق، وزارة الثقافة والإرشاد القومي.

❖ زكي مبارك. (1985). المدائح النبوية في الأدب العربي. منشورات المكتبة العصرية ، بيروت.

❖ سامي مكي العاني. (1983). الإسلام والشعر. سلسلة عالم المعرفة ، الكويت.

❖ سعيد حاجي. الشعر و الجذور. دار الحين للنشر.

❖ سورة غافر، الآية 60.

❖ سيدي محمد بن سليمان الجزولي. (1342 هـ). دلائل الخيرات. الجزائر: المطبعة الثعلبية.

❖ شعر-المدائح-النبوي. (بلا تاريخ). تاريخ الاسترداد 18 ديسمبر، 2022، من / <https://www.diwanalarab.com>

❖ شعر-المدائح-النبوي. (بلا تاريخ). تاريخ الاسترداد 01 janvier, 2023، من / <https://www.diwanalarab.com>

❖ شكري فيصل. تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام. بيروت: دار العلم للملايين.

❖ صالح مخيمر. (1986). المدائح النبوية بين الصرصري والبوصيري (المجلد ط 1). لبنان، عمان: دار بيروت، دار الهلال.

❖ عباس الجراري. (1982). الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها (المجلد ط 2). الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة.

❖ عبد الحميد حاجيات، و أبو حمو موسى الزياتي. (1982). حياته وآثاره. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

❖ غازي شبيب. فن المدائح النبوي في العصر المملوكي.

❖ قاسم عبد قاسم. (1990). ماهية الحروب الصليبية. (العدد 149)، وزارة الثقافة، الكويت: عالم المعرفة.

❖ محمد رجب النجار. (1986). بردة البوصيري. (الحولية السابعة)، جامعة الكويت.

❖ مختار حبار. (يونيو 1993). سيميائية الخطاب الشعري عند الصوفية. مجلة تجليات الحداثة (العدد 2).

❖ مختار حبار. شعر أبي مدين التلمساني (الرؤيا والتشكيل).

❖ مختار حبار. (2002). شعر أبي مدين التلمساني (الرؤيا والتشكيل). منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق.

❖ يوسف حسن حسن حجازي. (2012). دلالة القول الشعري. رسالة ماجستير ، (عبد الخالق د/ محمد العف، المحرر) جامعة غزة.

❖ يوسف وغليسي. (بلا تاريخ). التحليل الموضوعاتي للخطاب الشعري.

❖ يوسف وغليسي. (2017). التحليل الموضوعاتي للخطاب الشعري، بحث في ثوابت المنهج، وتحولاته العربية، ومحاولات لتطبيقه. جسور للنشر والتوزيع (ط1).

❖ يوسف وغليسي. (2017). التحليل الموضوعاتي للخطاب الشعري، بحث في ثوابت المنهج، وتحولاته العربية، ومحاولات لتطبيقه. جسور للنشر والتوزيع (ط1).